الاستقراء والتتبع عند الشيخ الألباني رحمه الله

الباحثة/ نور حسن محسن اليحياوي

المقدمة:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فلا مضلَّ له، ومن يضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهد أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين؛ أما بعدُ:

فإن واقع الحياة المعاصرة يتطلب السباقَ للوصول إلى مراتبَ متقدمةٍ بين الأمم في كل مجالات الحياة، ولن يتحقق ذلك إلا بالانشغال بالعمليات الفكرية التي ينتج عنها معارفُ وعلومٌ تخدم البشرية، وتعلي من القيمة الإنسانية، وتساهم بشكل أو بآخر في دفع الأضرار الفكرية والأخلاقية عن الأفراد والمجتمعات، وتحمي الأمم من التأخر الحضاري، أو الانصهار في الثقافات المغايرة.

ولأن المنهجية العلمية تجعل المفكر يسير وَفقَ رؤية تنير له الطريق، وتزوده بالعلوم المختلفة، فقد احتاج الناس إلى وجود قدوةٍ من البشر، تكون بمثابة المنارة التي يقتدون بها في كيفية التفكير العلمي السليم، ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث بعنوان: **منهجية التفكير عند العلامة محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله.**

- **أولًا: أهمية الموضوع:**

العلامة الألباني شخصية علمية فذَّة، وصاحب مدرسة متميزة في علم الحديث أغنى البحث العلمي بها، وقد أفاد بعلمه الغزير ومؤلفاته ودروسه عددًا كبيرًا من طلاب العلم ودارسي الحديث النبوي الشريف، فهو من العلماء المجدِّدين في هذا العصر، لا سيما في فن الحديث والحكم عليه؛ إذ كان يجتهد، ويبتعد عن التقليد، يقول رحمه الله: إنني لا أقلد أحدًا فيما أصدره من الأحكام على تلك الأحاديث، وإنما أتبع القواعد العلمية التي وضعها أهل الحديث، وجروا عليها في إصدار أحكامهم على الأحاديث من صحة أو ضعف.

فهو من حَمَلَةِ العلم وأوعيتِه، فقوله معتبر، وتصحيحه يُعتمَد، وهو كغيره من العلماء ليس بمعصوم، فيُستفاد من تصحيحاته وأحكامه في أمور كثيرة، فكان ولا بد من الكشف عن طرائق التفكير العلمي عند الشيخ الألباني رحمه الله، والتي جعلت منهجه مختلفًا عمَّن سبقه من العلماء الأخيار، ولم يقتصر علمُه على الحديث بل كان محدِّثًا، فقيهًا، عالمًا بالسنة، مدافعًا عن الإسلام، ومحاربًا للبدع والخرافات، محافظًا على العقيدة الإسلامية الصحيحة، وتميز بطريقة التصفية، وهي تصفية العقيدة مما علِقَ بها من البدع والشرك، والتعلق بغير الله، والعقائد الباطلة، والتمسك بسنة الرسول ﷺ، فكان ولا بد من دراسة طريقته العلمية في النقد والرد والاستدلال.

- **ثانيًا: أسباب اختيار الموضوع:**

- التراث العلمي الغزير الذي خلَّفه العلامة الألباني رحمة الله يحتاج إلى دراسة متأنية تتناول طريقة تفكيره.
- كثرة اللَّغَط والاختلاف والاتهامات التي أُلصِقت بالعلامة الألباني رحمه الله لعدم معرفة طريقة تفكيره.
- إظهار الجانب المشرق الذي ربما خفي من حياة الألباني الفكرية؛ إذ إنه عُرِف محدِّثًا فقيهًا، وأُلِّفت رسائلُ كثيرة في الحديث والعقيدة والفقه، ولكن لم أقِفْ على رسالة تناولت طريقة تفكيره.

- **ثالثًا: تساؤلات الموضوع:**

- ما أبعادُ التفكير وأنواعه عند العلامة الألباني؟
- ما ضوابطُ التفكير في تصحيح الأحاديث وتضعيفها عند الألباني؟
- ما الأُسُس والسمات الرئيسة للتفكير عند الألباني؟
- ما الفوائد المستنبطة من منهجية التفكير عند الألباني؟

- **رابعًا: حدود البحث:**

الكتب التي تتعلق بمنهج تصحيح الأحاديث وتضعيفها.

- **خامسًا: الدراسات السابقة:**

بعد الرجوع إلى مراكز الأبحاث، والبحث في المكتبات الإلكترونية، واستعراض قوائم الرسائل الجامعية، لم تجد الباحثة بحثًا بعنوان: **(منهجية التفكير العلمي عند العلامة الألباني دراسة تحليله)**، وقد تبين أن شخصية الشيخ رحمه الله محلُّ اهتمام كثيرٍ من طلبة العلم، فتناولوها بالدراسة في فنون متعددة، كالحديث، والفقه، والدعوة،

والعقيدة، والتربية... إلخ، غير أني لم أجد رسالةً علمية تناولت طريقة التفكير عند الشيخ رحمه الله، وسأضرب هنا أمثلةً على الدراسات السابقة في جوانبَ مختلفةٍ.

الدراسة الأولى: جهود الشيخ الألباني في الحديث روايةً ودرايةً، تأليف: عبد الرحمن العيزري، رسالة ماجستير، جامعة صنعاء.

الدراسة الثانية: مختلف الحديث عند الشيخ الألباني في كتابه إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، من أول الكتاب إلى آخِر كتاب الحج، جمع ودراسة وتحليل، المؤلف: فلحاء عبير الرشيدي، المشرف: محمد حمدي أبو عبده.

الدراسة الثالثة: تقوية الحديث الضعيف عند الشيخ الألباني، المؤلف: شادي إسماعيل، دكتوراه، الجامعة الأردنية. المشرف: باسم فيصل الجوابرة.

الدراسة الرابعة: منهج الألباني في تصحيح الحديث وتضعيفه، إعداد الطالبة: عائشة غرابلي، إشراف الأستاذ/ أ.د سلمان نصر.

الدراسة الخامسة: التعليل عند الشيخ الألباني، المؤلف: محمد حمدي أبو عبده، المشرف: باسم فيصل جوابرة .

الدراسة السادسة: منهج الألباني في التخريج وبيان الصنعة الحديثية فيه، رسالة ماجستير، تأليف: محمد أحمد عويس عبد الحكم.

- **منهج البحث:**

سأتبع في هذا البحث منهجين حسَب ما تقتضيه طبيعته، وهما كما يأتي:

١- المنهج الاستقرائي: أستقرأ فيها نِتاجَ الشيخ في تصحيح الأحاديث وتضعيفها؛ حرصًا على الوصول لكافة النماذج المتعلقة بالبحث.

٢ - المنهج التحليلي: دراسة النماذج المستخرجة على ضوء منهجية التفكير الصحيحة.

- عملي في البحث:

- قمت باستخراج النماذج والشواهد من كتب الألباني، ثم فرزها، وتصنيفها حسَبَ موضوعات البحث.
- ذكرت عدة نماذجَ لكل مبحث؛ نظرًا لحاجة المبحث لذكرها، والتنويع فيها، والتعليق عليها بما يناسب؛ لإبراز المنهجية الفكرية للعلامة الألباني رحمه الله.
- عزو الآيات لموضعها من السور، مع رقم الآية، وجعلته في متن البحث، وليس في الحاشية.

- إن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما فإني أكتفي بالإحالة عليهما مع ذكر رقم الحديث، وإن كان في غيرهما فإني أحيل على المصدر وموضعه.
- قد أذكر تخريج الألباني وحكمه على الحديث في متن البحث لإتمام الأمثلة الواردة.
- الترجمة للأعلام الواردِ ذكرُهم في البحث ما أمكن؛ عدا الرواة الذين تم ذكرهم في سياق البحث، فإني لا أترجم لهم حتى لا أُثقِلَ الحاشية.
- عزو الأقوال إلى قائلها، فما ينقل بنصه يكون بين قوسين هكذا: "..."، وما عداه مما يُذكَر بالمعنى يُحال إليه بلفظ: يُنظر.
- القيام بوضع الفهارس العلمية اللازمة في آخر الدراسة؛ لتكون عوناً للقارئ عند رغبته في الرجوع إلى ما يريد من هذه الدراسة بسهولة ويسر.

الاستقراء والتتبع:

الاستقراء في اللغة: مأخوذ من الفعل الثلاثي (قرأ)، الذي من معانيه الجمع والضم، جاء في لسان العرب: وقَرَأْتُ الشيءَ قُرْآنًا: جَمَعْتُه، وضَمَمْتُ بعضَه إِلَى بَعْضٍ[1].

الاستقراء في الاصطلاح: هو الحكم على كليٍّ بوجوده في أكثر جزئياته.

وإنما قال: في أكثر جزئياته؛ لأن الحكمَ لو كان في جميع جزئياته لم يكن استقراءً؛ بل كان قياسًا مقسمًا، ويُسمَّى هذا استقراءً؛ لأن مقدماته لا تحصل إلا بتتبع الجزئيات، كقولنا: كل حيوان يحرك فكَّه الأسفل عند المضغ؛ لأن الإنسان والبهائم والسباع كذلك، وهو استقراء ناقص، لا يفيد اليقين لجواز وجود جزئي لم يُستقرَأ، ويكون حكمه مخالفًا لما استُقرِئ كالتمساح؛ فإنه يحرك فكَّه الأعلى عند المضغ[2].

التتبع في اللغة: من تبِعَ، تَبِعْتُ القومَ تَبَعًا وتَباعَةً بالفتح، إذا مشيت خلفهم، أو مَرُّوا بك، فمضيتَ معهم; وكذلك اتبعتهم، وهو افتعلت، وتَتَبَّعْتُ الشيء تتبعًا؛ أي: تطلبته متتبعًا له، وكذلك تَبَّعه تَتْبيعًا[3].

الاستقراء والتتبع كلمتان مترادفتان، وهما مرحلة البحث والمتابعة المستمرة لمسألةٍ ما، أو إثبات فكرة، أو ترجيح دليل على آخَرَ.

والمتتبع لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية يجد الكثير من الآيات والأحاديث التي تدعو إلى استخدام الطريقة الاستقرائية منهجًا للبحث من أجل المعرفة العلمية.

"ومن الآيات الدالة على الاستقراء في القرآن الكريم ما ذكره الله تعالى في سورة البقرة من قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، في البحث والاستقراء عن حقيقة الإله، قال تعالى: (فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ) [سورة الأنعام:٧٨-٨٠].

(١) لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، باب الراء، فصل القاف (١٢٨/١).
(٢) التعريفات، باب الألف (١٧/١).
(٣) الصحاح، باب تبع (٣/ ١١٨٩).

يذكر القرآن في هذه الآيات أحد أُسُس المنهج الاستقرائي، فإبراهيم عليه السلام احتمل أن تكون هذه الآلة معبودةً، فاستقرأها جميعَها، فوجدها لا تصلح أن تكون إلهًا؛ إنما الإله هو الله وحده لا شريك له"[(١)].

وهناك نصوص كثيرة في كتاب الله تعالى دعت إلى استخدام المنهج الاستقرائي في تقصي الحقائق، والكشف عن المدلولات الحسية والمعنوية، من خلال التتبع والتفكر في ملكوت الله تعالى، وأحوال الأمم الغابرة؛ حتى ينأى الإنسان بفكره، ويبتعدَ عن كل ما يعكِّر صفوَ عقيدته، ويسموَ برُوحِه نحو خالقه، وقد جرى استخدام المنهج الاستقرائي في السنة النبوية الشريفة من خلال أحاديثه صلوات الله وسلامه عليه، ففي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ جاءه أعرابي فقال: يا رسول الله، إن امرأتي ولدت غلامًا أسودَ؟ فقال: ((هل لكَ مِن إبلٍ؟. قال: نعم. قال: ما ألوانُهَا؟. قال: حُمرٌ. قال: هل فيها من أورَقَ؟. قال: نعم، قال: فأنَّى كانَ ذلكَ؟. قال: أراه عرقٌ نزَعَه. قال: فلعلَّ ابنَكَ هذا نزَعَه عِرقٌ))[(٢)].

فقد حث النبي صلى الله علية وسلم ذلك الرجل على الاستقراء والتتبع في حال الإبل، حتى يخرج الرجل من دائرة الشك إلى دائرة اليقين، ويوقنَ أن هذا المولودَ ربما جاء لونه أسودَ بناءً على عرقٍ سابق، كما هو حال الإبل.

واستخدم الصحابة والتابعون هذا المنهج لأهميته؛ حيث لا غنى عن الاستقراء في تقصي الحقائق، والبحث عن المعلومات، ومعرفة الجزئيات والكليات؛ خصوصًا في مجال أصول الفقه.

وهناك نوعان من الاستقراء:

النوع الأول: "الاستقراء التام؛ وهو تقرير أمر كلي بتتبع كل جزئياته.

النوع الثاني: الاستقراء الناقص؛ وهو استقراء أمر كلي بتتبع بعض، أو أغلب جزئياته"[(٣)].

وقد كان منهج الألباني رحمه الله في استقراء المسائل استقراءً تامًّا.

والاستقراء كما نعلم من الأدوات العقلية التي تستوجب الإعمالَ النظريَّ والاجهادَ الذهنيَّ، وهو منهج علمي يهدف إلى صياغة الكليات، وقد تميز بها الألباني رحمه الله

(١) دليل الاستقراء وأثره في الشريعة الإسلامية، عتيق موسى، رسالة ماجستير في العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، ٢٠٠٠ -٢٠٠١ (٦٧).

(٢) أخرجة البخاري (باب ما جاء في التعريض / حديث رقم ٦٨٤٧/ ١٧٣/٨) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، مصورة عن السلطانية بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ .

(٣) الاستقراء ودوره في معرفة المقاصد الشرعية، د/ نور الدين مختار الخادمي، مكتبة الرشد - ناشرون، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ه – ٢٠٠٧م، (٢١).

تعالى، فقد كان يستقرئ في مسألة واحدة أو إثبات دليل واحد كُتُبًا كثيرةً، حتى يتم البت فيها، وربما يبحث في مجلدات كاملة لأيام وأسابيعَ معدودةٍ من أجل إثبات شطرٍ من مخطوط، أو تصحيح حديث، أو تضعيفه...، فقد بحث رحمه الله عن ورقة ضائعة من مخطوط في الآلاف المجلدات، قال رحمه الله: "تابعت البحث عن الورقة الضائعة، ولكن عبثًا، حتى انتهت مجلدات (المجاميع) البالغ عددها (١٥٢) مجلدًا، بيد أني وجدتني في أثناء المتابعة أخذت أسجل في مسودتي عناوينَ بعض الكتب التي راقتني، وشجعني على ذلك أنني عثرت في أثناء البحث فيها على بعض النواقص التي كانت من قبل من الصوارف عن التسجيل، ولما لم أعثر على الورقة في المجلدات المذكورة، قلت في نفسي: لعلها خيطت خطأ في مجلد من مجلدات الحديث، والمسجلة في المكتبة تحت عنوان (حديث)، فأخذت أقلبها مجلدًا مجلدًا، حتى انتهيت منها دون أن أقفَ عليها؛ لكني سجلت عندي ما شاء الله من المؤلفات والرسائل، وهكذا لم أزل أعلِّل النفس وأمنيها بالحصول على الورقة، فأنتقل في البحث عنها بين مجلدات المكتبة ورسائلها من علم إلى آخَر؛ حتى أتيتُ على جميع المخطوطات المحفوظة في المكتبة، والبالغ عددها نحو عشرة آلاف مخطوط، دون أن أحظى بها، ولكني لم أيأس بعدُ، فهناك ما يُعرَف بـ (الدست)، وهو عبارة عن مكدسات من الأوراق والكراريس المتنوعة التي لا يُعرَف أصلها، فأخذت في البحث فيها بدقة وعناية، ولكن دون جدوى"[(١)].

من خلال هذه الطريقة في البحث نجد أن الشيخ رحمه الله كان سيَّالَ العقل، قويَّ الملاحظة، حريصًا على العلم، فلم يكتفِ بالبحث عن تلك الورقة، إنما بدأ بتدوين الموضوعات التي تحتاج لبحثٍ، حتى يتنسى له الرجوع لها في وقت آخَر، وبحثها، والتعديل عليها، وقد مَنَّ الله عليه بسَعة العلم والصبر على البحث والمطالعة، رغم الألم والإجهاد الذي يستدعي الراحةَ، كما أوصاه طبيبه بذلك؛ لكن شغَفَه بالعلم والقراءة جعلته يواصل البحثَ، فلذَّةُ البحث أنسَتْه آلامَه.

ومما يدل على شغَفِه بالعلم والاطلاع والمراجعة الدقيقة قوله رحمه الله في تأليف كتاب الجنائز: "انكببتُ على الدراسة والمراجعة قرابةَ ثلاثة أشهر، أعمل فيها ليلَ نهارٍ، إلا ما لا بد منه من العمل في مهنتي، والنوم الذي لا غنى عنه لراحة جسمي، حتى تمكنت من إعداد هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ الكريم"[(٢)].

(١) حياة الألباني بقلمه، جمع وإعداد: عاصم موسى هادي، الناشر: المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ (٣٥).
(٢) أحكام الجنائز، المقدمة (٧).

وكذا اهتمامه بإيراد الأدلة وتتبعها من مظانِّها عند تأليف الكتب، فقد قال رحمه الله عند تأليف كتاب أحكام الجنائز: "لذلك كان لا بد قبل كل شيء من جمع مفردات مسائل "الجنائز"، ثم دراستها دراسة دقيقة، وأتتبع أدلة المختلف عليه منها، ونقدها على ضوء علمي "أصول الحديث" و"أصول الفقه"، واختيار الراجح منها، دون أي تحيز لمذهب معين، أو تأثر بعادة سيطرت، حتى صارت كأنها دِينٌ يجب أن يتبع، ومما لا يخفى على أهل العلم الذين مارسوا التأليفَ أن تحقيق مثل هذا العمل يتطلب سعيًا حثيثًا، وجهدًا بليغًا، وصبرًا جميلًا، وزمنًا مديدًا، وبعد إنجازه يمكن تأليف الرسالة المطلوبة بصورة تطمئنُّ إليها النفس، وينشرح لها الصدر، ويعظم بها النفع"[(١)].

الاستقراء الذي تميز به الألباني رحمه الله نَمَّى ملَكتَه العقلية، فمع الصبر والجلد على مطالعة الكتب ومتابعة المسائل تكونت ملكتُه المعرفية، واستطاع الألباني أن يميز بين أمور دقيقة جدًّا، سواء كان في تتبع الأحاديث النبوية متنًا وسندًا، أو تتبع المسائل الفقهية.

وقد كان رحمة الله يتتبع طُرُقَ الحديث، حتى يبين صحيحها من ضعيفها، ومنها قوله رحمه الله: "ثم تتبعت طرقه، فتبين لي أنها شديدة الضعف، لا تصلح للاعتبار وتقوية الحديث بها، ولذلك أوردته في السلسلة الأخرى" [(٢)].

وقوله رحمه الله: "وقد تتبعت ما أورده منها أبو بكر بن أبي لدنيا في كتابه "العقل وفضله"، فوجدتها كما ذكرتُ لا يصح منها شيء"[(٣)].

وقال: "وتابعت البحثَ والتحقيق، فتبيَّن لي أنه صدوق، وأن الحافظ كان في قوله المذكور غيرَ مصيبٍ"[(٤)].

وقد عُرِف الألباني رحمه الله بحرصه الشديد على السنة النبوية، وتمحيص الأحاديث الضعيفة من الصحيحة، من خلال تتبع الطرق، والاستقراء الطويل في الكتب والمؤلفات التي تهتم بعلوم الحديث، سواء كان درايةً أو روايةً .

(١) المصدر نفسه (٨).

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، المؤلف: محمد ناصر الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، عام النشر ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م (٥١/١).

(٣) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، المؤلف: محمد ناصر الألباني، الناشر: دار المعارف الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م (٥٣/١-٥٤).

(٤) مقدمة الطبعة الأولى من سلسلة الأحاديث الضعيفة (٥/١).